المحاضرة الخامسة: نظرية الانعكاس ملاحظة : هذه المحاضرات للدكتور صلاح ياسين

أولا) مفهومها:

هي نظرية أدبية ترى بأن الأدب يعكس المجتمع كما تعكس المرآة الأشياء؛ فإذا كان في المجتمع: فقر، بؤس، أوبئة، صراع طبقي، فإن ذلك سوف يظهر في كتابات الأدباء، ولعل رواية **البؤساء لفيكتور إيغو Victor Hugo (1802، 1885)** **وقصيدة الكوليرا لنازك الملائكة (1923، 2007)** تعبر بصدق عن الواقع الذي كان يعيش فيه كل من الأديبين.

ظهرت نظرية الانعكاس في القرن التاسع عشر تقريبا، وقد تزامن ظهورها مع المذهب الواقعي في الأدب والمنهج الاجتماعي في النقد.

ثانيا) أسسها الفلسفية والفكرية:

1) الفلسفة الوضعية:

هي فلسفة علمية تزعمها الفيلسوف الفرنسي **أوجست كونت Auguste Comte (1798، 1857)** الذي يرى بأن الظواهر الاجتماعية قابلة للدراسة الحسية مثل الظواهر الطبيعية، والخروج بنتائج شبه ثابتة، وقد أفرزت الفلسفة الوضعية علم الاجتماع الحديث*.

2) المذهب الطبيعي:

صاحب هذا الاتجاه المفكر **إيميل زولا Émile Zola (1840، 1902)** الذي يرى أن الإنسان هو كائن مقيد تتحكم فيه مجموعة من الغدد والغرائز والهرمونات، وتنفي هذه الفلسفة عن الإنسان الجوانب الروحية والنفسية، فهي تهتم فقط بالجانب الجسماني/ الفيسيولوجي/ المادي، وهي بذلك تعتبر فلسفة عَلْمَانِيَّة إلحادية تعارض الأديان السماوية والتفسيرات الفلسفية الماورائية.

وقد تأثر بهذه الفلسفة الناقد الفرنسي **إيبوليت تين Hippolyte Taine (1828، 1893)** الذي كان منبهرا بقوانين العلوم الطبيعية وحتميتها الصارمة، فهو يرى أن **"الأديب يفرز الأشعار والفلسفات بطريقة تشبه تماما إفراز دودة القز لخيوط الحرير أو إنتاج النحل للرحيق ليكون تين الناقد الأكثر حماسا والأشد رغبة في تأسيس علم وضعي**

---

* ومن أمثلة الدراسة العلمية للمجتمع أن عمل المرأة في المجتمعات الريفية قديما يعتبر أمرا منبوذا وشبه محرم، غير أنه بحلول الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر وتحول المجتمع من الريف إلى المدينة أصبح عمل المرأة واجبا وضرورة لأن ظروف العيش أصبحت صعبة، فلم يعد مجهود الرجل لوحده يكفي لسد متطلبات الحياة وإنما لا بُد من تعاون كلا الجنسين وانخراطهما في ميدان العمل.

للأدب"[1]، وقد رسم تين ثلاثية شهيرة يرى أن الأديب لا يمكنه أن يحيد عنها أو يخرُج من إسارها وهي **الجنس والبيئة والزمن**.

3) الفلسفة الاشتراكية:

تستند نظرية الانعكاس على خلاف النظريات السابقة إلى الفلسفة الواقعية بزعامة الفيلسوف والمفكر المادي **كارل ماركس Karl Marx (1818، 1883)** الذي سعى إلى تفسير الظواهر ومنها الأدب اعتمادا على العامل الاقتصادي المادي[2]؛ حيث يرى ماركس أن لكل مجتمع بِنْيَتَان:

بنية تحتية: يمثلها النتاج المادي المتجلي في البنية الاقتصادية للمجتمع كالثروات الطبيعية من بترول غاز وذهب وحديد لدولة ما، إضافة إلى مساحتها الجغرافية وموقعها الإقليمي وامتداد ساحلها وغيرها من المكونات التي تبني الاقتصاد وتساهم في تطويره.

بنية فوقية: تتمثل في النظم الثقافية والعادات والتقاليد والقانون والسياسة والفن والأدب.

ويرى ماركس أن أي تغير في قوى الإنتاج المادية وعلاقاته لا بُد أن يُحدث تغييرا في العلاقات الاجتماعية والنظم الفكرية، لتصبح العلاقة بين البنيتين علاقة انعكاس جدلي.

ثالثا) آراء نظرية الانعكاس في الأدب:

ترى نظرية الانعكاس أن الأدب لابُدَّ أن يعبر عن المجتمع؛ **"وخلافا للرؤية المثالية التي ترى في الأدب تعبيرا فرديا عن هواجس النفس الإنسانية وعواطفها ترى الماركسية أن الأدب هو محصلة للظروف الاجتماعية المختلفة من فقر وبؤس وصراع طبقي"**[3]، ومنه فنظرية الانعكاس حوَّلت مركز الاهتمام من الأديب إلى المجتمع، وهي بذلك قد عارضت نظرية التعبير التي تركز على الفردية كما ناهضت أيضا نظرية الخلق التي ركزت على النص.

إن هذا الانتقال من الفردية إلى الجماعية كانت نتيجة تحول المجتمع من الزراعة أو التجارة إلى المجتمع الصناعي، **"ولما كانت عقيدة الإنسان الفرد قد انهارت فقد فرضت ظروف الحياة الجديدة المتطورة نحو الجماعة عقيدة جديدة تتمثل في الإيمان بالمجتمع وصارت هذه العقيدة الجديدة هي عقيدة الفنان نفسه بوصفه إنسانا يعيش في جماعة وتربطه بها مصالح وأهداف مشتركة"**[4]، ونتيجة لذلك بدأ الماركسيون ينقضون بعض الشعارات التي تنأى عن وظيفة الفن والأدب الاجتماعية مثل مقولة الفن للفن، ليرفعوا بدلا من ذلك شعارات الفن للحياة، والفن للمجتمع **"فصار للأدب**

---

[1] السيد يسين: التحليل الاجتماعي للأدب، دار التنوير، بيروت، لبنان، ط2، (د.ت)، ص 80.
[2] صالح هويدي: النقد الأدبي الحديث، منشورات جامعة السابع من أبريل، ليبيا، ط1، 1426ه، ص 94.
[3] كمال نشأت: في النقد الأدبي (دراسة وتطبيق)، مطبعة الجامعة، بغداد، العراق، 1976، ص 194.
[4] عز الدين إسماعيل: الشعر العربي المعاصر قضاياه وظواهره الفنية والمعنوية، ص 379.

رسالة وللفن وظيفة، وظهرت مقولات الفن الهادف، ورسالة الأدب والفن والالتزام وغيرها"[5].

ومن أبرز الأدباء الذين أبدعوا في تصوير الواقع ألكسندر بوشكين Alexandre Pouchkine (1799، 1837) وديستويفسكي Dostoïevski (1821، 1881) وليو تولستوي Léon Tolstoï (1828، 1910) **من روسيا،** وفيكتور إيغو وغوستاف فلوبير Gustave Flaubert (1821، 1880) وبالزاك Balzac (1799، 1850) **من فرنسا،** وتشارلز ديكنز Charles Dickens (1812، 1870) ووالتر سكوت Walter Scott (1771، 1832) **من إنجلترا.**

حوصلة الأمر أن نظرية الانعكاس قد تأسست على الفلسفة الواقعية وهي بذلك تعارض جميع النظريات التي سبقتها، كما أنها انتقلت بالنظرية الأدبية من دراسة عالم المثل والأديب والنص إلى التركيز على المجتمع الذي صارت له اليد العليا في توجيه الأدباء وتغيير قناعاتهم.

[5] صالح هويدي: النقد الأدبي الحديث، ص (95، 96).